الخطاط العراقي خليل الزّهاوي.. شهيد الحرف والإبداع

معصوم محمد خلف *

بتاريخ ٢/٦/٢٠٠٧م انطفأت شعلة من مشاعل الفن والإبداع من سماء العراق الزاهر بعدما شعَّ بنوره البهي على مساحة بحجم الوطن فكانت الكارثة والجريمة والفراق، حيث اغتال مسلحون مجهولون الخطاط الحاج خليل الزهاوي، الذي يعد شيخ الخطاطين في بلاد الرافدين.



* باحث وخطاط سوري.

العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

وقـال أقارب للزهـاوي: «إن مسـلحين مجهولين هاجموا منزل الزهاوي الذي يقع في منطقة بغداد الجديدة الليلة الماضية وأطلقوا النـار عليه ممـا أدى إلى مقتله في الحال ثم لاذوا بالفرار».

ويعتـبر الزهـاوي الذي يبلغ مـن العمر ٦٥عاماً من الخطاطـين المبدعين في الخط العربي بكامل أصوله. وقد أعد أكثر من مئة لوحة في الخط العربي والزخرفة الإسلامية ليضـمها معرض شخصي كان من المقرر أن يقام قريباً. وسبق للزهاوي أن شارك في عدة معارض داخل العراق وخارجه.

شيخ الخطاطين سيرة ذاتية:

يعـود الإبـداع الفنـي للخطـاط خليل الزهاوي للعام ١٩٦٦م عندما اتخذ من حرف التعليق أساساً لأسلوبه الذي نفذه في لوحات تضـمنها كتابه الأول «قواعـد خط التعليق» الذي صـدر في بغداد عام ١٩٧٧م وللزهاوي مدرسة في الخط العربي يطلق عليها «مدرسة الزهاوي».

اسـتطاع أن يؤسس له أسـلوباً خاصاً في فن الخـط العربي، فقد أدخـل الكثير على تشـكيلاته حيث حررها من الجمود وجعلها تنطلـق نحو الدمـج بين الحرف والشـكل، وصار أكثر توقاً إلى إدخال الحرف في أعمال الجرافيك والجداريات. سرق اللصوص أكثر مـن ٣٠٠لوحة مـن أعمال الزهـاوي عقب سـقوط بغداد من مركز الفنون حيث كان له جناح خاص يضـم خيرة أعماله الفنية داخل المركز.فهـو من مواليد مدينـة خانقين عام ١٩٤٦م تخللت حياته الإبداعية ٣٤ معرضـاً فنيـاً كان أولها عام ١٩٦٥م إضـافة إلى ما يزيـد على ٣٠٠ مشـاركة في معارض أخرى داخل وخارج العراق وقد حصـل على شهادة الخـط العربي من الشـيخ الخطـاط زرين خط في طهران، وللزهاوي في الخط العربي مؤلفات عدة منها «تشكيلات الخط العربي» و«مصـور الخـط العربي» و«مصـور خط التعليق» وغيرها.

وكانـت بدايته في عـام ١٩٥٩ حيث كان يحب الرسـم ويرسـم بعض اللوحات المائية بعـد ذلـك تعـرف في مدينتـه خانقين إلى الخطـاط المرحـوم نجـم الديـن الخطاط فأرشـده ووجهه لهذا الفن الأصـيل وبعدها تعـرف إلى الخطاط الكبير في بغداد هاشـم البغـدادي وما بين عام ١٩٥٩م وعام ١٩٦٣م بقـي في مدينته خانقين تـدرب على قواعد الخط العربي بأنواعه وأصوله وبعدها انتقل



إلى بغداد واطلع على أعماله المرحوم هاشم الخطاط فانبهر بها وقال له إنك موهوب وخاصة في كتابة الخط الفارسي «التعليق» فرد الزهاوي أن هذا التأثير ناجم على أنه من سكنة مدينة خانقين القريبة من إيران، حيث كان الإيرانيون يأتون إلى خانقين دائماً لقرب المسافة بينهما وكان الزهاوي يتبادل معهم الصحف وبعض الأعمال الفنية إضافة إلى أن بعض الخطاطين الإيرانيين كان يلتقي بهم في المدينة فكان التأثير بالخط الفارسي واضحاً على أعماله وبعدما حصل على شهادة في الخط العربي من طهران من الخطاط الكبير حسين زرين خط وقال له زرين عندما اطلع على أعماله التي نفذها بالخط الفارسي، هل أنت إيراني فأجابه بأنه عراقي من أكراد شمال العراق وشجعه كثيراً وأُعجب به.

بعد عودته من طهران أصدر أول مؤلف له عام ١٩٧٧م تحت عنوان «قواعد خط التعليق» ثم بعد ذلك أصدر كتاب «جماليات الخط العربي» ثم «ميزان الخط العربي» ثم «موسوعة الزهاوي لفنون الخط العربي»، كما أصدر في بيروت «مصور الخط العربي» و«مصور خط التعليق» وله كتاب يحمل عنوان «بردة المديح» للإمام البوصيري كتبه بخط التعليق وهو عبارة عن أشعار في الرسول

محمد صلى الله عليه وسلم بقواعد الخط الفارسي حيث إن الأشعار كتبها بالخط الفارسي مسقطة بقواعد الخط الفارسي يقع الكتاب في (١٨) صفحة ولديه كتب أخرى في الطريق.

كان معرضه الأول عام ١٩٦٤ على مستوى محافظة ديالى وكان طالباً في الإعدادية في مدينة خانقين ثم أقام بعد عام معرضاً للبوستر السياسي.

عمل في نهاية السبعينات في مركز الفنون خبيراً للخط العربي لأكثر من عشرين عاماً ثم أُحيل إلى التقاعد.

مدرسة الزهاوي للخط تتميز بأنها حافظت على قواعد الخط غير أنها خرجت من القالب التقليدي حيث حاولت أن تلبس الخط العربي لباساً جميلاً ابتعدت عن الجمود الذي يخيم على الحرف إضافة إلى أن جميع تشكيلاته الفنية هي عبارة عن لونين فقط هما الأسود والأبيض اللوحة الفنية لديه تحمل القواعد نفسها لكن بطريقة حديثة معاصرة.

فالحرف في ذاكرة شيخ الخطاطين عالم شاسع رحب يختزن في ثناياه تاريخ الشعوب الإسلامية ويوحدها باختلاف لغاتها ولهجاتها ولكناتها.

ويبقى الحرف هو المفتاح الألمع لذاكرة الأمة وخزانتها الثقافية والرمز الأوحد لعظمة الرسالة المحمدية. فالحرف إلى جانب كونه شكلاً فنياً ساحراً هو أيضاً الوعاء الذي احتضن عبر القرون العقيدة الإسلامية وهو اللغة التي ترجمت النفوذ والسلطة والعلم والشعر والفنون بكل أشكالها على مدى حقب تاريخية مشرقة، وعلى مدى رقعة جغرافية امتدت حتى أطراف الصين وشطآن المحيط الهادي وأدغال أفريقيا. كما لا يمكن اعتبار الحرف مجرد علاقة لغوية فحسب، بل هو البرزخ النفّاذ من عالم المرئي وحيز الوجود إلى عالم الفكر والتخيل بجميع الصيغ المتعارف عليها.

وبما أن الآلة يسرت للإنسان أساليب الحياة، ونقلته إلى مراحل متقدمة في السلم الحضاري والترفيهي، لم يكن يحلم بها.

مع كل هذا التطور وازدياد التقنيات، تنتاب هذا الإنسان لحظات من التأمل يشعر خلالها أن الآلة تسببت في تنميط بعض جوانب من حياته، حتى أفقدتها الروح الإنسانية، ويتنامى هذا الشعور عند ملامسة مواطن الفن في دواخل الإنسان وجعلته بعيداً

عن تلك المعايير والموازين والقواعد الحقيقية لفن الخط العربي.

فالتعامل الدقيق مع جزئيات الحروف تعد بمثابة الخامة الأساسية في بناء أي عملٍ فني، لذلك يتطلب الإلمام بالتفاصيل الدقيقة للبنية الارتكازية لقوام الحرف، وكلما ارتقت الحروف إلى القاعدة الحقيقية كانت اللوحة الخطية أقرب إلى الجمال والكمال.

إضافة إلى الثقافة البصرية الواسعة التي استمدت ذخيرتها من إبداعات الخطاطين القدماء الذين أعطوا لهذا الفن مرجعية ثابتة ومتأصلة وغير قابلة للتبديل.

يرفدها في ذلك الحذر والتأني كي نستطيع من خلالها العبور إلى عوالم الحروف والذي يقوم بدوره في تجسيد ملامح البنية الأساسية لهيكلية البناء الفني الشامل، وإذا كانت جزئيات الحروف هشة وشحيحة فإن ذلك يعكس على تكوين الحرف والذي يعد بمثابة الشريان في تغذية المناطق الهامة من اللوحة كالظل واللون والخلفية ومحاور البناء الفني.

فالحرف الواحد في الأبجدية العربية يتكوّن من أسرار وعوالم وخفايا مخزونة في قوالبها الثابتة لكل نوع على حدة.. حتى النقطة لها معالم وأسرار وأشكال وأنواع، والخطاط هو الفنان الوحيد الذي يملك زمام المبادرة في إيجاد أرضية خصبة لجماليات الحرف وتشكيلات اللوحة الخطية التي تكسب خبرة واسعة في استشفاف الأبعاد الأساسية لموازين الحروف.

أضف إلى ذلك تلك اللمسة الفنية التي يمررها على خلفية اللوحة الخطية لإعطائها واجهة قادرة على التعايش مع جميع ألوان الطيف في ولادة لوحة خارجة من إطارها الكلاسيكي المعروف إلى عالم يكتظ بالألوان والإيحاءات.

فمن تجربة الخطاط العراقي الكبير خليل الزهاوي الذي ينطلق إلى الانصراف في المزاوجة ما بين الصرامة الاتباعية للخط العربي وبين تجريديات تشكيلية تغطي خلفية اللوحة وعبر ما استقامت من مقدرة أدائية في كل من مجالي الخط والخلفية الموازية لتلك الخطوط التي رسمت على مستويات مختلفة في الوضوح وتباين بالحجم مما يؤكد جهة الفنان الإبداعي في تعزيز منظور ذي أبعاد متعددة ألمّ بأسرار مهنته فسعى إلى التبشير بها والإعلان عنها.

ومما لا شكَّ فيه أن الخطاط خليل

الزهـــاوي قـــد اســـتطاع أن يوجـــد منعطفاً فنيـــاً مهماً في تجربـــة الحداثة عبر الخروج بموســـيقى اللوحـــة الخطيـــة مـــن موروثها التقليـــدي والخـــروج بالحـــرف إلى حيـــث مـــا يؤكدهـــا في وحدتها التكامليـــة وإلى ما يخرج بها من الوصـــف والتجانس والتحاور والتقريريـــة الكلاســـيكية إلى اللوحـــة التي تقوم علـــى الإيحاء نحو الخلفية المتجذرة في أعماق التاريخ حيث الأصالة الموازية لتقنيات الحـــرف الجميل عبر منظومة متعددة الرؤى ونمطية تطورات العصر.

فللخـــط ازدواجيـــة أو ثنائية في الهدف، هدف ظاهـــري وهو الهدف اللغوي الصرف، وهدف باطني وهـــو الهدف الروحاني والتي عجزت الآلات الحديثة والحواسيب الدقيقة مـــن إلغاء دورها الهـــام في العملية الجمالية لبنية الحرف.

وقد اســـتطاع الخطاط الزهاوي أن يعي تماماً بحسه الفني المرهف وتجربته الطويلة مع الحـــرف وقدرته الأدائيـــة في الإبداع أن مكوّنات الحروف العربية الصارمة في بنائها الهندســـي وقدرتها على التكيف في أي شكل يتطلب جهداً موضـــوعياً في انسيابها العذب وتشـــكلها البنائي البسيط أو المعقد، تستطيع من خلال كل ذلك أن تتضـــمن معنى باطنياً يسمو على معناه اللغوي.

فـــإن كان الكلام مقدســـاً جاء التشـــكيل الفني موازياً لما يتضـــمنه من قدســـية، وإن كان عادياً أو شبه عادي جاء المضمون الفني أسمى وأشمل وأعم وأكثر تعبيراً عن روحانية الخطاط.

وإلا كيـــف يمكننـــا أن نفســـر ارتفاعات الألفـــات واللامـــات أو امتـــدادات الباءات وأخواتها، أو التفافـــات الحاءات والجيمات أو تعقيدات الراءات والزّايات..إلخ وتداخلها مع بعضها في تشـــكيل هندسي خطي صارم ومعقد ومبهم حتى الإعجاز بل أحياناً يصـــل لدرجة إغفال النص عن مضـــمونه اللغوي. ومن السذاجة القول إن ذلك يُعدُّ من الألعاب الفنية التي لا هدف لها إلا التعبير عن قدرة الخطـــاط الفنيـــة. إن الهدف بلا شـــك هو التعبـــير عن حالة لا مرئيـــة مطبوعة بداخل النفس العربية من جهـــة ومؤكدة ومثبتة من خلال التعامل مع المعيار الديني وهي عملية التزاوج الواضـــح بين المرئـــي بدلالته اللغوية واللامرئي بدلالته الفنية.

ومهمـــا أبـــدع الخطاطـــون في الجانب الإعجازي من اللوحة فإن ذلك يمثل مشروعاً

فنياً ذا قيمة عالية متكاملة الأبعاد عبر نسيج ثقافي وتاريخي يستنهض المقدرات والهمم.

كما أن مشكلة الوعي الفني في الثقافة العربية المعاصرة لا يقتصر عبر المجالات المادية والإدارية وغيرها.. بل يشمل قضايا الذوق والحساسية الجمالية عند الناس.

ومن هنا يجب الاهتمام بإدخال علم الجمال والتربية الفنية في المؤسسات التعليمية بجميع مستوياتها وخاصّةً بعد أن دخلت منظومة المعلوماتية على سكة الإبداع اليدوي والتي تقحمها من الجذور. وإن كل حديث عن الثقافة العربية المعاصرة أو عن المشروع الحضاري لا يهتم بالقيم الجمالية والفكرية للفنون الحديثة وخاصة فن الخط يبقى حديثاً ناقصاً، ذلك أن المجهود التنويري مجهود عام يشمل العقل والسلوك والذوق وهي أدوات لثلاثة مجالات متكاملة، الفكر والأخلاق والقيم الجمالية.

